الرقم الدولي المعياري للمؤتمر ـــــــ (معتمد ومصنف دوليًا) ـــــــ ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

السرد والتأويل
مقاربة بلاغية تأويلية للنص السردي في التراث العربي القديم

إعداد

د. سلطان دخيل الله حضرم العوفي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في جامعة طيبة

ملخص الدراسة

حظي الخطاب الشعري بمنزلة عظيمة في تأصيل نشأة البلاغة العربية، فقد ارتبط حضور الأصول الفكرية للبلاغة العربية عند كثير من النقاد والعلماء بتلك الإشارات النقدية والملاحظات اللغوية في الخطاب الشعري، وهذا الأمر يدعو إلى البحث عن أثر الخطاب السردي في بناء الوظيفة البلاغية.

وعلى هذا الأساس، تتجه هذه الدراسة إلى قراءة بعض النصوص السردية في التراث العربي القديم؛ للكشف عن المفاهيم البلاغية المضمرة في الخطاب السردي، في ضوء النسق الثقافي والاجتماعي في تلك المرحلة، ومحاولة ربطها بأصول الفكر البلاغي عند العلماء، وذلك للإجابة عن سؤال معرفي انطلقت منه هذه الدراسة، وهو: كيف أسهم الخطاب السردي في بناء الوظيفة البلاغية؟

وبناء على ما سبق، سيعالج البحث هذه الدراسة وفق مفهوم الافتراض التأويلي وأدواته الإجرائية عند أمبرتو إيكو، لتتبع العلامات اللغوية وغير اللغوية في النص السردي، للكشف عن المعاني المستترة والدلالات المنصهرة في بنية السرد.

الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام على رسوله الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

ارتبط حضـــور الأصـــول الفكرية للبلاغة العربية عند كثير من النقاد والعلماء بالإشـــارات النقدية والملاحظات اللغوية في الخطاب الشعري، فلذلك حظي الخطاب الشعري بمنزلة عظيمة في تأصـيل نشـأة البلاغة العربية. فسـلطة الشـعر على النثر في تلك المرحلة جعلت كثيرا من هؤلاء العلماء ينصرفون إلى البحث عن مقاييس البلاغة والفصاحة من خلال الخطاب الشعري.

ولا شـك بأن مصـدر هذه الإشـارات في تلك الفترة هو القدرة البيانية والحاسـة النقدية عند العرب النابعة عن الذوق السليم والشعور بالجميل، والتي استطاعت أن تحكم بين الشعراء وتميز بين محاسن الشعر وعيوبه على أساس مقاييس بلاغية تتصل باختيار الألفاظ والمعاني والصور الشـــعرية، كما تتصـــل بالإيجاز والتعقيد والمطابقة بين الكلام ومقتضـــاه، وما إلى ذلك من الملاحظات البلاغية لفن القول[1].

وفي هذا السـياق، يشـير الدكتور محمد مشبال بأن وصـف الشـعر بأنه الأكثر حضـورا في صـياغة أصـول البلاغة العربية لا ينفي حضـور أجناس السـرد الأخرى[2] في صـياغة هذه الأصول، ولكن السرد يختلف عن الشعر بأن ينتمي إلى النشاط اليومي للإنسان[3]، وهو بذلك "لا يقدم حقائق جاهزة، إنه يقوم ببنائها استنادا إلى تفاصيل الحياة وهوامشها"[4]

من أجل ذلك، قامت هذه الدراسـة على مساءلة الخطاب السـردي؛ لإبراز قيمته في تكوين الفكر البلاغي، وتأصـيل المقاييس البلاغية والنقدية التي ساهمت مع الخطاب الشعري في بناء الوظيفة البلاغية.

ومما تجدر الإشارة إليه، بأن هذه الأصول منصهرة في بنية السرد، ومضمّنة في مقتضيات القول، ومودعة في اسـتعمال الإنسـان للغة من خلال نشـاطه اليومي، وفق محددات ثقافية واجتماعية وسلوكية لهذا الاستعمال، فـــــ" العلاقة بين مفهومات البلاغة والأدب وبين مبادئ الوجود الإنساني والحياة الاجتماعية والخُلُقية، حقيقة لم تغب عن بال القدامى الذين لم يتصـوروا البلاغة والأدب بعيدين عن الإنسان بجسده وسلوكه الاجتماعي"[5]

فالعلاقة بين مفاهيم البلاغة ومبادئ الحياة، ترصـد فكرة حضـور هذه الدراسـة بين السـرد والتأويل، ذلك بأن دمج النصـوص السـردية في سـياقات وأنسـاق ثقافية واجتماعية يظهر الحاجة إلى التأويل؛ لبناء المعاني البلاغية المنبثقة عن هذه النصوص، أو التي تؤول إليها [6].

فعلى سبيل المثال، السرد عند الجاحظ هو امتداد لخطابه البلاغي، لا يجوز فهمه إلا في ضوء المفاهيم والمعايير التي بلورها البلاغيون القدامى. وبعبارة أخرى، إن النص السردي عند الجاحظ يصوغ معناه بتفاعله مع جملة من النصوص والخطابات التي تتشكل عن طريق المقدرة التأويلية للقارئ[7]

وعلى هذا الأساس، تتجه هذه الدراسة إلى تأويل الدلالات والكلمات والإشارات والعبارات المضمّنة في النصوص السردية، من أجل الكشف عن الأصول الفكرية للبلاغة العربية المنصهرة في بنية السرد وذلك للإجابة عن سؤال معرفي انطلقت منه هذه الدراسة، وهو: كيف أسهم الخطاب السردي في بناء الوظيفة البلاغية؟

وبناء على ما سبق، سيعالج البحث هذه الدراسة وفق مفهوم الافتراض التأويلي وأدواته الإجرائية عند أمبرتو إيكو؛ لتتبع العلامات اللغوية وغير اللغوية في النص السردي، فقد تحدث إيكو عن الافتراض التأويلي، بأنه سؤال يضعه القارئ على النص، ويتمثل في هذه الحالة بإسقاط لسياق يبنيه المتلقي، وعلى وفقه تُبنى معاني النص ودلالاته ، وبعبارة أخرى إن المركز ليس في النص كما اعتقدت البنيوية، فهو كيان أخرس، إن مركزه في هذه الحالة في فعل القراءة ذاتها، لذلك كان النص دائما متعدد المقاصد والغايات، إنه يوكل إلى قارئه المحتمل، فالوحدات الدلالية في وعي المتلقي، لا في ذاكرة النص الغفل، والسياق المنتقى لا يقصي ما لا يتحقق من الوحدات، إنه يخدرها فقط، وبذلك فهي قابلة للانبعاث من جديد مع كل تنشيط لذاكرتها، وهذا ما يؤكد التعدد في القراءة والدلالات وفي الآفاق أيضا.[8]

ومن هذا المنطلق، " كان الافتراض جزءا من تصور تأويلي يوسع من ذاكرة النص؛ لتستوعب أكبر قدر من السياقات وبذلك يبيح التعدد ويحبذه، ولكنه لا ينساق وراء الانتشار الحر للدلالات"[9]

وتأكيدا على ضبط مسار التأويل وتقييده من الانفلات والانتشار حددت الدراسة ممكّنات هذا التأويل والتي من ضمنها: الموسوعة[10] الثقافية والدينية والاجتماعية والتداولية والسميائية، ومن ضمن هذه الممكنات ارتباط التأويل بمحور النص؛ فالمحور" أداة خارج نصية، أو خطاطة فرضية مقترحة من قبل القارئ"[11]، وبعبارة أخرى، هو الموضوع العام للسرد والمتصل اتصالا وثيقا بسياقه التداولي، والذي يسهم في الترجيح بين المعاني من خلال المقومات الذاتية والسياقية للعلامات المؤولة فـــ" الخصائص التي يتم استحضارها هي تلك التي يرشحها مسار النص، ويهبها الأولوية على الخصائص الأخرى التي تبقى مضمرة وموجودة بالقوة، ولا تنتقل إلى مرحلة

الوجود بالفعل إلا بعد تدخل القارئ الذي ينتقي من موسوعته ما يشاء مشروطا في ذلك المصاحب النصي"[12]

ومن النماذج السردية على هذه الدراسة ما يلي:

عن أبي الفضل أحمد الهمذاني قال: "جاءت امرأة إلى القاضي وذكرت أن زوجها طلقها، فقال القاضي: لك بينة؟ فقال: نعم: جار لنا، قال: فأحضرته، فقال القاضي: أسمعت طلاق هذه المرأة؟ فقال: يا سيدي خرجت إلى السوق فاشتريت لحماً وخبزاً ودبساً وزعفراناً، فقال له القاضي: ما سألتك عن هذا، هل سمعت طلاق هذه المرأة؟ قال: ثم تركته في البيت وعدت فاشتريت حطباً وخلاً، فقال: دع هذا عنك، فقال: ما أحسن الحديث من أوله، ثم قال: جلت في الدار جولة فسمعت زعقاتهم وسمعت الطلاق الثلاث، فما أدري أهي طلقته أم هو طلقها"[13].

يصور الخبر السابق مشهدا من مشاهد القضاء، متعلقا بغياب الحجة والبينة في مجلس القضاء، فقد حاول القاضي في هذا الموقف بناء معرفة يستدل بها للوصول إلى الحقيقة الغائبة؛ وذلك من أجل الحكم بين المرأة وزوجها في مسألة وقوع الطلاق وثبوته بينهما، في ظل عدم وجود الأدلة والقرائن سوى شهادة جارهم الذي لم يمتلك القدرة البيانية لحسم هذه القضية، وتحقيق العدالة فيها.

فقد أسهب الجار في فضول من الكلام لا صلة له بالبينة المطلوبة منه، فعبّر بذكر تفاصيل مشترياته في اليوم الذي حدثت فيه واقعة الطلاق، بحجة رغبته في ذكر أعماله منذ بداية اليوم، وهو ما تسبب في ضجر القاضي والتبرم منه في كل مرة يسأله عن سماع الطلاق في بيت جيرانه.

فالحجة في هذا الموقف ليست مطلقة، بل مقيدة بالزمان والمكان، من خلال الإطار المحدد لها من قبل القاضي، والمتمثل في سؤاله: هل سمعت طلاق هذه المرأة؟ فالزمن ليس ممتدا لهذا الرجل بسرد تفاصيل مملة لا داعي لذكرها أو الخوض فيها، كما أن المكان لا يسمح له باستدعاء هذه التفاصيل البعيدة عن تحقيق الشهادة، فمجالس القضاء ممتلئة بالناس الذين ينشدون الحق في مخاصماتهم ويطلبون العدالة في منازعاتهم.

إن كلمة البينة لها مؤولات نفعية مرتبطة بمقتضاها المعجمي[14] تتمثل في الظهور والوضوح والبيان والحق والعدل والقوة والسلطة والشجاعة.

ولكن البينة في هذا النص خرجت – بسبب شهادة الجار – من مؤولاتها النفعية السابقة إلى مؤولات سياقية تحيل إلى فساد هذه البينة، واستهجانها وعدم الاستناد عليها للحكم في هذه

القضية من خلال سلوك هذا الشاهد، المتمثل في إخلاله بأصل من أصول البلاغة، وهو عدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، من خلال إسهابه في هذا المقام الذي يتطلب منه الإيجاز وترك فضول الكلام، فـ"على وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى"[15] ، وكما قيل لأحدهم ما البلاغة قال: "إصابة المعنى وحسن الإيجاز "[16]

كما أن هذا السلوك الصادر من الشاهد، يحيل إلى عيب من عيوب الكلام، وهو الهذر وقد نبَّه عليه الجاحظ بقوله: " وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه"[17]

ومن زاوية أخرى، وتحت مفهوم المطابقة يمكن القول بأن الشاهد تعمّد إفساد البينة بهذا الهذر أمام القاضي من أجل الاحتراز من وقوع الطلاق، فالبينة كما تبيّن من مؤولاتها السابقة أنها من البيان وهو الإفصاح والكشف عن المراد. ومن هذا المنطلق، فقد بيّن هذا الشاهد – بطريقة ضمنية –عن مراده بهذا الهذر، وهو تزهيد القاضي في شهادته، وإقناعه بعدم قبولها، وهذا يتعلق بمقاصد المتكلم، والقصد هو "التعمد في اختيار لفظ معين مراعاة لمقام مخصوص"[18]، وهذا بطبيعة الحال يعود بنا إلى أصل البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وبناء عليه، فإن القصد إلى تحقيق المطابقة يقتضي ضرورة أن يكون المتكلم واعيا وهو يتكلم وأن كلامه مطابق لمقتضى الحال[19].

ويبدو لي بأن المعنى الثاني المتعلق بمطابقة مقتضى الحال والمرتبط بمقاصد الاحتراز من وقوع الطلاق هو الأقرب للصحة والصواب بقرينتين عقلية ولفظية: فأمّا العقلية هي عدم منطقية هذر الشاهد في مجلس القضاء إلا إذا كانت قدراته العقلية غير سليمة، وهذا مستبعد لأنه لو كان كذلك لم تطلب المرأة بينته عند القاضي. وأمّا اللفظية فهي قوله: "فما أدري أهي طلقته أم هو طلقها"، وهذا دليل على أن الشاهد يريد أن يتهرب من الشهادة في الطلاق، فليس من المنطق أن الجار لا يفرق بين صوت الرجل وصوت المرأة!

ولما كانت البينة حاضرة في النص السابق ولكنها لم تسهم في الحكم بين المرأة وزوجها، فإنها في بعض الأحيان تكون غائبة ولكن تحتاج إلى فطنة من القاضي لإظهارها، كما حصل في مجلس القاضي إياس، في النص التالي: فقد "استودع رجل رجلاً مالا، ثم طلبه فجحده فخاصمه إلى إياس بن معاوية فقال الطالب: إني دفعت المال إليه، قال: ومن حضر؟ قال: دفعته في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد، قال: فأي شيء في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلقْ إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يتبين به حقك،

لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل، قال إياس للمطلوب: اجلس حتى يرجع خصمك، فجلس وإياسُ يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا، أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا، قال: يا عدو الله، إنك لخائن، قال: أقلني أقالك الله، فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل، فقال له إياس: قد أقرّ لك بحقك فخذه"[20]

يعبر موضوع النص السردي عن تحقيق العدالة، فالبينة لم تكن حجة قولية كما أرادها القاضي في النص السابق، فالرجل هنا خصم عنيد يكتم الحقيقة، ويجحدها أمام مرأى من القاضي إياس، الذي لم يتوانَ في كشف زيفه وكذبه وتضليله، مستعينا على ذلك بعنصر الزمان والمكان، على نحو ما سيتبين في تحليل هذا النص السردي.

إن البينة في هذا النص السردي قطعت رحلة عميقة؛ للوصول إلى الحقيقة، وقد استعمل القاضي إياس في هذه الرحلة علامات؛ لإبراز هذه الحقيقية:

منها: استمالة القاضي إياس للمتهم واستدراجه، وتعتبر علامة غير لغوية، **ومنها**: الشجرة، وهي علامة لغوية منطوقة في سياق النص السردي يتجسد فيها النشاط التأويلي والاستدلالي: فالنشاط التأويلي للشجرة يستدعي شجرة الجنة المذكورة في القرآن الكريم في قصة آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [21]، وتشير الموسوعة بأن للشجرة عدة مؤولات منها: الحياة والخصوبة، والخطيئة والخروج من الطاعة [22]، وهذه المؤولات متلائمة مع نسيج النص السردي السابق، فمؤول الحياة والخصوبة يتمثل في حكم القاضي إياس بين الناس بالعدل، وهذا يستلزم الحياة والنماء والأمن والرخاء في البلاد، ومؤول الخطيئة والخروج من الطاعة ويتمثل في استيلاء الرجل على مال صاحبه والاعتداء على حقوقه. وأمّا النشاط الاستدلالي للشجرة في سياق هذا النص، يبين بأن الشجرة خرجت في هذا السياق من وظيفتها النفعية المتمثلة في الحياة والخصوبة والظل الوارف والثمر اليانع إلى وظيفة سياقية تتمثل في فخ نصبه القاضي لهذا الرجل، فأصبحت دليلا وبرهانا على اختلاس هذا الرجل لمال صاحبه واستيلائه عليه.

ومن يتأمل هذه العلامات في هذا النص السردي يدرك بأن لها جذورا في البلاغة العربية مرتبطة بخصائص الدّلالة المعبرة عن المعنى عند الجاحظ حينما قال: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة"[23]

فإنكار الرجل وجحوده دعا القاضي إياس إلى استمالة الرجل واستدراجه من حيث لا يعلم،

والاستدراج من الأصول البلاغية التي نص عليها ابن الأثير في كتابه المثل السائر بقوله: "هذا الباب أنا استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال"(24)

وقد واجتمع الاستدراج في هذا النص السردي بالقول والفعل، من خلال حنكة القاضي إياس، حيث لم يوجه الاتهام للرجل مباشرة، بل أرسل صاحب المال للتأكد من وجود ماله وصرف انتباهه حتى يشعره بالاطمئنان وعدم الخوف، مما جعل القاضي إياس يباغته بالسؤال: "يا هذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة"؛ ليتأكد من معرفته للشجرة من خلال تخمينه للمدة الزمنية التي يقطعها صاحب المال حتى يصل إلى مكانها، وقد أبان هذا المعنى عن دلالة العقْد عند الجاحظ المرتبطة بالحساب(25).

فسؤال القاضي يشير إلى مسافة الشجرة ضمنا من خلال زمن الوصول المتوقع إلى الشجرة، فكان هذا السؤال المباغت للمتهم دافعا لكشف كذبه ومعرفة الحقيقة من دون وعي وإدراك منه.

ولهذا السبب، كانت هذه الشجرة بينة غير ناطقة، ساهمت في بيان الحقيقة، والتبليغ عن صدق دعوى صاحب المال، فالشجرة من خلال تأدية هذا المعنى، تتمثل فيها دلالة النّصبة عند الجاحظ التي عبر عنها بـ "الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان"(26)

ومن فضاء القضاء إلى فضاء التعليم يسرد علينا الجاحظ هذا الخبر الغريب فيقول: "مررت بمعلم، و.. قد حبس ديكاً، وهو يضربه، ويقول له ألف شين، ألف شين، فقلت له: ما هذا؟ فقال لي: أعزك الله، انظر إلى تلك المزبلة، وأشار إلى مزبلة أمام مكتبه، فقال: أنا أنصب فيها فخاخاً؛ لصيد العصافير، فيأتي هذا الديك، فيلتقط الحب الذي أجعله لها، فقلت له: اش، فلا يفهمني، فقلت: لعله لا يعلم، وأردت أن أعلمه؛ حتى يفهمني"(27)

يتضمن النص السردي السابق على عنصر الغرابة، فالعقل لا يستوعب تأديب الديك من أجل تعليمه؛ لأن هذا الفعل يتنافى مع مقتضيات الطبيعة وقوانينها ويتعارض مع مبادئ الحياة ومجرياتها، فالغرابة تتشكل عادة في النص من الخروج عن المألوف ومخالفة أفق التوقع عند المتلقي.

والغرابة عنصر من عناصر الوظيفة الجمالية في البلاغة العربية وتتجلى قيمتها في

الغموض الذي تثيره في ذهن المتلقي، فيحاول تفسيره عبر عملية التأويل، وهذا يتطلب – على حد قول ريكور– "إسباغ نوع من الألفة على ما كان يبدو غريبا"[28]، ويتمثل هذا الإسباغ في محاولة المتلقي للتأليف بين المتباينات والتقريب بين المتناقضات؛ لتمكنه من الحصول على إثارة الإعجاب ولذة السرور ومتعة القراءة المرتبطة بالوظيفة الجمالية.

ومن يتأمل سياق هذا النص السردي، يجد بأن كلمة الديك تمثل علامة لغوية خرجت من مقوماتها الذاتية المعبرة عن الطائر الضعيف غير المدرك لعواقب الأمور إلى علامة لغوية مرتبطة بمقومات سياقية، تتمثل في خصم يقوم بالأذى والتهديد بقطع الرزق، وهذا ما سبب أزمة نفسية عند المعلم، بدأها بالصراع مع هذا الديك بحجة تعليمه وتأديبه.

ولا شك بأن الجاحظ سخّر السرد في هذا النص للسخرية من هذا المعلم من خلال هذا الصراع الذي نشب بينه وبين الديك، وهو في الحقيقة صراع بين الفهم والإفهام؛ لأن طبيعة الديك متوافقة مع فعله المتمثل في عدم الفهم لكلمة "اش"، والاستمرار في التقاط الحب من دون تأثير أو اعتبار لكلام المعلم، بينما سلوك المعلم مع هذا الديك مثير للهزل والضحك والسخرية، فلا يمكنه منع الديك من ممارسة نشاطه الطبيعي في هذه الحياة بهذا الأسلوب الغريب المتناقض مع مقتضيات الطبيعة ومبادئ الحياة.

ولما كان قبول الغرابة المفارقة للطبيعة والعقل مترتب على أسس خلقية وثقافية وعقدية[29]، فإنه ينبغي أن ندرك أن الجاحظ من خلال هذا النص السردي يريد أن يرسخ مشروع نظرية التواصل والبيان التي عقدها في مؤلفاته والمتصلة اتصالا وثيقا بسياقه الفكري للبلاغة العربية، وكأن الجاحظ يريد أن يقول لنا بأن هذا المعلم خرج من حدود صحة الطبع وقيمة الاعتدال إلى سماجة التكلف وشنعة التزيد، كما أن علمه افتقر إلى أصل عظيم من أصول البلاغة، وهو الجهل بـــ "أقدار المستمعين"، وقد عبّر عنه الجاحظ بقوله: " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[30]

والمتأمل في حقيقة هذا الصراع، يدرك بأن الديك شكل تهديدا لمكانة المعلم وقيمته العلمية والاجتماعية عندما تكلف في تأديب هذا الديك، فخرجت نتيجة تكلفه من دون تأثير على الديك، ومن دون تقدير عند المتلقي، فأصبح هذا المعلم موضعا للسخرية والتندر لمعارضته مقتضيات الطبيعة ومجريات الحياة.

فالنص السردي يجسد الفكر البلاغي عند الجاحظ، المتعلق بأسس التواصل والبيان وقيمتها البلاغية في الحياة، "وكأن الجاحظ يقص علينا حكايات شخصياته وأخبارها ليسهم في وضع قواعد للسلوك الاجتماعي والتصرف في الحياة على نحو تتطابق فيه مقاييس البلاغة ومقاييس السلوك المنشود"(31)

ومن الأمثلة في هذه الدراسة قول مصعب: "بلغ أشعب أنّ الغاضريّ قد أخذ في مثل مذهبه ونوادره، وأن جماعة استطابوه؛ فرقبهم حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريش يحادثهم ويضحكهم، فصار إليهم، ثم قال: قد بلغني أنك قد نحوت نحوي، وشغلت عني من كان يألفني؛ فإن كنت مثلي فافعل كما أفعل، ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه، حتى صار عرضه أكثر من طوله، وصار في هيئة لم يعرفه أحد بها، ثم أرسل وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر في سيف؛ ثم نزع ثيابه وتحادب، فصار في ظهره حدبة كسنام البعير، وصار طوله مقدار شبر، ثم نزع سراويله، وجعل يمد جلد خصييه حتى حك بهما الأرض، ثم خلّاهما من يده، وجعل يميس، وهما يخطان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدّد وتمطّى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال. فضحك القوم حتى أغمي عليهم، وقطع بالغاضريّ فما تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنما أنا عبدك وتخريجك؛ ثم انصرف أشعب وتركه"(32)

يعبر النص السردي السابق عن قيمة التنافس في هذه الحياة، وأن من يمتلك المهارة المتميزة هو من ينجح فيها، وهذا ما حصل مع أشعب حينما نافسه الغاضري في مذهبه القائم على الطرفة والنادرة.

إن منافسة الغاضري لأشعب في إضحاك الناس وإدخال السرور عليهم بالطرائف والنوادر، دق ناقوس الخطر عند أشعب، لأن هذه المنافسة ليست منافسة اعتيادية، إنها منافسة على مصدر السعة والرزق عند أشعب، فهو يتكسب بهذا المذهب ويستجدي به الناس، مما جعله يبتكر طريقة أخرى وينتج أسلوبا مغايرا حتى يتفوق فيه على الغاضري أمام الناس.

فالأسلوب المعتاد القائم على دلالة اللفظ المعبر عن النوادر والطرائف، لم يعد مجدياً أمام هذا الخطر الحقيقي على مصدر الرزق عند أشعب، مما حداه أن يعبر عن معنى النادرة بأسلوب ظريف من خلال دلالة الإشارة، ولا شك بأن دلالة الإشارة من الأصول البلاغية المعبرة عن المعاني عند الجاحظ في قوله: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي

تسمى نِصْبة"(33)

إن عرض أشعب المضحك في هذا المجلس يمثل حملة إعلانية ودعاية تسويقية لمذهبه، فقد تخلى من خلاله عن دلالة اللفظ واستعمل دلالة الإشارة، فلم يترك عضوا من أعضاء جسده حتى عبّر به ليضحك الناس، ويدخل السرور عليهم، وذلك من أجل أن يثبت للناس أن له قصب السبق وعظيم الأثر في مجال الطرائف والنوادر، وأنه قادر على العطاء والاستمرار والابتكار فيه.

وهذا ما حصل مع أشعب في نهاية هذا العرض المضحك حيث انتصر على منافسه الغاضري انتصارا ساحقا، عبّر الناس عنه بالضحك حتى وصل بهم الضحك إلى حد الإغماء، مما جعل الغاضري يبهت ويعترف لأشعب بالجدارة والاستحقاق والفضل في هذا المذهب حينما قال له منسحبا من مجاراته: "يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنما أنا عبدك وتخريجك"

فأشعب استعمل دلالة الإشارة عبر أعضاء جسده، فقامت بالتواصل نيابة عن دلالة اللفظ؛ لتمثيل المعنى المراد، فالإشارة" لغة غير لفظية تشمل الحركات والإشارات والإيحاءات والتعابير الصادرة عن أجزاء من جسم الإنسان في مواقف مختلفة، وهذه اللغة تحمل معاني ودلالات رمزية وتساعد على التواصل مع الآخرين والتأثير عليهم بطريقة إيجابية أو سلبية"(34)

فقول الغاضري: "يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنما أنا عبدك وتخريجك"، تفتح في هذا النص السردي مسارا تأويليا، يحيل إلى تأثر الغاضري برسالة أشعب، ذلك بأن كلمة عبدك لها عدة مؤولات منها: الخادم والطاعة والاستسلام والانقياد والرضوخ للأوامر، وكلمة تخريجك لها مؤولات منها: التلميذ والتدريب، والتعليم، والدعوة إلى العمل.

فهذه العبارة على لسان الغاضري تجسد قيمة الإشارة بأنها وصلت ذروة البيان وبلغت الغاية في الفهم والإفهام و" مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان"(35).

ومن الأمثلة على هذه الدراسة ما أورده الحصري بقوله: "مر رجل بإنسان وعلى عاتقه عصا في طرفيها زنبيلان، قد كادا يحطمانه، في أحدهما بُرّ وفي الآخر تُراب. فقال: لم فعلت هذا؟ قال: عدلت البُرَّ بالتُّراب؛ لأنه كان قد أمالني إلى أحد جنبي؛ فأخذ الرجل زنبيل التُّراب وقلبه وقسم البُرَّ نصفاً في الزنبيلين. وقال: الآن فاحمل، فحمله فخف عليه؛ فقال: ما أعقلك من شيخ"(36).

يدل موضوع النص السردي السابق على الغفلة، المتمثلة في سلوك هذا الشخص الذي لم

يسعفه تفكيره في إيجاد حلّ لموازنة حمولته من البرّ التي أثقلت كاهله سوى عدلها من التُّراب.

وقد بيّن السارد في هذا النص غفلة هذا الشخص من خلال عدة علامات: منها عدم التناسب في موازنته لحمولته، فصحة التناسب تستلزم بأن تكون الأشياء المتناسبة من فضاء دلالي مشترك [37]، ومنها سوء استعماله للعصا والتي كادت أن تتحطم بسبب هذه الموازنة الخاطئة. فالعصا في هذا النص فقدت مقوماتها النفعية المتعلقة بها، واتصلت بها مقومات سياقية دلت على حماقة الشخص وجهله بقيمة العصا وعدم الوعي بأهميتها والتي كادت أن تتحطم بسبب غفلته.

وتأكيدا على مبدأ التماثل بين مفهوم البلاغة ومبادئ الحياة، فإن العقل يرفض فعل هذا الشخص الذي أثقل كاهله بالتُّراب، كما أن الذوق – بالفطرة – يعترض عليه، فالبلاغة بمفهومها الواسع "ليست مجرد قواعد لبناء التخاطب ولكنها أيضا قواعد لبناء حياة الناس في المجتمع"[38]

ويتمثل هذا التماثل في مكونات النص السردي، من خلال تصرف الرجل بصحة التناسب في تقسيم الحمولة إلى نصفين كلاهما من البرّ، والتناسب من الأصول البلاغية التي لا يمكن حصرها في الألفاظ أو المعاني، بل هو شامل لمعاني الحياة وتفاصيلها من خلال الذوق السليم والإحساس بالجميل، وهذا بطبيعة الحال يعود بنا إلى مصدر البلاغة في مرحلة التكوين وبداية النشأة حينما كان الذوق هو المعتمد في الأحكام النقدية والمقاييس البلاغية.

إن غفلة هذا الشخص من خلال هذا الموقف تدل على معاناته الشديدة بعدم بلوغ أهدافه بأيسر طريقة وأفضل وسيلة، والنص السردي يشتمل على دعوة ضمنية إلى أهمية الوعي والإدراك في الحياة، لتحقيق الحاجات ونيل الغايات، ويتمثل هذا المعنى من خلال سيرورات التأويل لثنائية البرّ والتُّراب في نسيج مكونات هذا النص.

ولإدراك هذه الدعوة الضمنية تشير الموسوعة بأن كلمة البرّ لها عدة مؤولات منها: الطعام والقمح والزرع، وهذه المؤولات تحيل إلى عوامل ساعدت على تنمية ونماء هذا النبات واخضراره، ومنها ضرورة العمل، والذي يقتضي الوعي والإدراك؛ لاستمرار وجود الإنسان في هذه الحياة. وأمّا كلمة التُّراب فترتبط بعدة مؤولات منها: السكون والجمود والفناء المفضي إلى العدم، وهذا المؤولات تحيل بطبيعة الحال إلى انعدام الوعي والإدراك، وعلى هذا الأساس، تدل عبارة "ما أعقلك من شيخ" في نهاية السرد على أن غفلة هذا الشخص كانت سببا في معاناته وشقائه في هذه الحياة وأن الوعي والإدراك هما السبيل لإنقاذه من هذه الغفلة.

%%%

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الموجزة العلاقة بين السرد والتأويل من خلال بعض النصوص السردية في التراث العربي القديم؛ للكشف عن الأصول البلاغية المنصهرة في بنية السرد، وذلك للإجابة عن سؤال معرفي انطلقت منه هذه الدراسة، وهو كيف أسهم السرد في بناء الوظيفة البلاغية؟

وقد حرصت الدراسة على التنوع في موضوعات النصوص السردية: الثقافية والاجتماعية والسلوكية في تلك المرحلة، وقد أظهرت دراسة هذا الموضوع أن الخطاب السردي يتضمن أصول البلاغة الفكرية، من خلال نشاط الإنسان في حياته اليومية، مما يؤكد على إسهام الخطاب السردي مع الخطاب الشعري في بناء الوظيفة البلاغية وترسيخ قواعدها المتعلقة بالتواصل والبيان.

لقد كانت الأصول البلاغية المراد البحث عنها في النصوص السردية، معطيات غير جاهزة، وليست معاني مسكوتاً عنها، إنما هي قراءة تأويلية شكلت نسقا مولدا للمعنى من خلال العلاقة بين السرد والتأويل. وبناء عليه، فقد أظهر التأويل من خلال النصوص السردية المختارة بعض الأصول والمعايير البلاغية منها: مطابقة الحال، والاستدراج، ودلالة النّصبة، ودلالة الإشارة، ومفهوم البيان، والغرابة، والفهم والإفهام، والتناسب، والذوق.

كما كشف التفاعل بين مفاهيم البلاغة ومبادئ الحياة من خلال قراءة هذه النصوص، أن فضاء البلاغة رحب واسع، يتجاوز آفاق اللغة، وحدود المنطق. وبناء على ذلك، يمكن القول بأن البلاغة ليست مقتصرة على التعبير عن المعنى المراد بأحسن صورة من اللفظ، كما إنها ليست منحصرة في القول الممتع الجميل أو ذلك الخطاب الحجاجي المؤثر، إنها سلوك عابر للثقافات والأزمنة متصل بتاريخ الوجود الإنساني في هذه الحياة، يستوعب قضايا الإنسان وما يعترضه من مشكلات ومصاعب في هذه الحياة، ويقدم له الحلول النافعة والوصايا الناجعة؛ لتسهم في تبليغ الإنسان مقاصده وتحقيق أهدافه.

---

(1) ينظر: في تاريخ البلاغة العربية، نشأة البلاغة العربة، د. عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربة، بيروت، ص12

(2) البلاغة والأصول (دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي – نموذج ابن جني)، محمد مشبال، أفريقيا

الشرق، الدار البيضاء – المغرب، 2007م، ص38.

(3) ينظر: السرد الروائي وتجربة المعنى، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ص240

(4) المرجع السابق: ص239.

(5) الحجاج والتأويل (في النص السردي عند الجاحظ)، د. محمد مشبال، نادي القصيم الأدبي، بريدة – السعودية، ط1، 1436هـ -2015م، ص61.

(6) ينظر: المرجع السابق: ص35.

(7) ينظر: المرجع السابق: ص61.

(8) سيميائيات النص (مراتب المعنى)، سعيد بنكراد، دار الأمان، الرباط – المغرب، ط1، 1439هـ- 2018م، ص 39

(9) سيميائيات النص (مراتب المعنى)، ص41.

(10) يقصد بمصطلح الموسوعة على أنها "ذاكرة جماعية تتضمن مجموعة من المعطيات الثقافية في سياق سوسيو ثقافي محدد والتي على القارئ الرجوع إليها أثناء عملية تأويلية النص الأدبي"،، ينظر: سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، د. رشيد الإدريسي، دار رؤية، القاهرة – مصر، ط1، 2010م، ص68.

(11) سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، ص102.

(12) المرجع السابق: ص98.

(13) أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، تحقيق وشرح: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني، ط1، 1410هـ - 1999، ص171.

(14) مصدر المقتضى المعجمي للكلمة هو معناها المعجمي، ويشكل محتواه معنى ضمنيا يكمن تحت الملفوظ المنطوق، ينظر: الحجاج في القرآن، د. عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط2، 2007م، ص90.

(15) البيان والتبيين، الجاحظ، دار الهلال، بيروت، 1423هـ، ج، 1، ص81.

(16) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الجيل، ط5، 1401هـ -1981م، ج1، ص242.

(17) البيان والتبيين: ج1، ص101.

(18) المنوال البلاغي (من البناء القائم إلى البناء الممكن)، بسمة شكيلي، كلية الآداب والفنون والانسانيات بمنوبة، تونس، ط1، 2014م، ص142.

(19) ينظر: المرجع السابق: ص142-143.

(20) الأذكياء، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1405هـ . 1985م، ص78.

(21) سورة البقرة آية رقم 35.

(22) ينظر: مسالك المعنى (دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية)، سعيد بنكراد، اللاذقية – سوريا، ط1، 2006م، ص40-42.

(23) البيان والتبيين: ج1، ص82.

(24) المثل السـائر في أدب الكاتب والشـاعر، لابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي- بدوي طبانة، دار نهضـة مصر، القاهرة، ج2، ص205.

(25) ينظر: البيان والتبيين: ج1، ص82.

(26) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص86.

(27) حدائق الأزاهر، لابن عاصـم الغرناطي، تحقيق: عبد اللطيف عبدالحليم، المكتبة العصـرية، صـيدا ت بيروت، 1413هـ - 1992م، ص267.

(28) سيرورات التأويل من الهرموسية الى السيميائيات، سعيد بنكراد، دار الأمان، الرباط، ط1، 1433هــ - 2012م، ص236.

(29) ينظر: الحجاج والتأويل (في النص السردي عند الجاحظ)، ص84.

(30) البيان والتبيين، ج1، ص131.

(31) الحجاج والتأويل (في النص السردي عند الجاحظ)، ص61.

(32) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية، ط1، 1423هــ، ج4، ص29.

(33) البيان والتبيين، ج1، ص76.

(34) أهمية لغة الجسـم في الاتصـال مع الآخرين، مجلة الإدارة، عبد الله بن عبد الكريم السـالم، المجلد: 33، العددان: 3-4، 2001م، ص12.

(35) البيان والتبيين، ج1، ص76.

(36) جمع الجواهر في الملح والنوادر، الحصـــري، تحقيق: د. رحاب عكاوي، دار المناهل، ط1، بيروت - لبنان، 1413هـ - 1993م، ص355.

(37) التلقي والتأويل (مقاربة نسـقية)، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضـاء- المغرب، 2009م، ص50

(38) الحجاج والتأويل (في النص السردي عند الجاحظ)، ص61.